مقدمة

عندما هوى محترقاً في السابع عشر من شهر إبريل ١٩٩٣ كان جمال حمدان بمثابة الشهاب الذي ينير سماء المعرفة قبل أن يلتقي بالأرض ـ أرض مصر الذى احترق في هواها ـ بل قل كالنيزك. لأنه لم يحترق كلية وإنما بقيت أفكاره نبراساً مضيئاً يتلألأ في سماء المعرفة الجغرافية .

لقد كان حمدان المولود في الرابع من شهر فبراير ١٩٢٨ «إقليماً» متفرداً في مجال الفكر الجغرافي. عَلم بذاته. تلعب أفكاره الجغرافية دور مشيرة البوصلة. تشير دوماً إلى الاتجاه الفكري الجغرافي الصحيح. كشعاع الذى الفنار يهدي التائه في لجج بحر الجغرافيا العاصف.

كما كان رحمه الله « قطب نمو فكريّ » لأنه بعد أن نمّي عقليته الجغرافية وتشبع بالفكر الجغرافي المعاصر أخذ يشع نور المعرفة الجغرافية ويعززه. لقد كان بمثابة القلب بالنسبة لمريديه من دارسي الجغرافيا. قلب كبير يجدد فيهم أفكارهم. وفى مسكنه المتواضع عاش مع جغرافيته يناجيها. فأعطته أحسن ما عندها ليخرج عبقرياته الفذة .

وإن كان الراحل الكريم د. جمال حمدان قد توقف عن قراءة معظم ما كتب في الجغرافيا أثناء فترة عزلته « الرائعة » بعيداً عن الحياة العملية فإنه لم يتوقف عن التفكير الجغرافى. وظل حتى آخر لحظات عمره يفكر ويبدع ويكتب. كما ظلت إسهاماته وإضافاته الفكرية في مجال العلم تمثل معيناً ثرياً للعديد من دارسي الجغرافيا والمهتمين بها .

وإذا كان الجغرافيون قد نظروا إلي الجغرافيا علي أنها علم وفن وفلسفة كما قال بذلك

«دبنام» و «ستامب» فإن حمدان أوضح الصورة بجلاء عندما قال أنها «علم بمادتها فن بمعالجتها وفلسفة بنظرتها» فهي العلم الذي يري في السماء صورة الأرض .

ولا يزال العديد من غير المتخصصين في العلم أو المهتمين به ينظرون إليه علي أنه علم جاف لكن قراءة «جغرافية حمدان» تجعلك تشعر بطراوة العلم وليونته واقرأ معي ما قاله حمدان عن الجغرافيا من أنها العلم الذي يحول الظاهرات التي تشغل سطح الأرض من «حقائق مرصوصة إلي أفكار رصينة » .

ونظراً لأن « الإقليمية » كانت مذهبه الجغرافي فقد أبدع الرجل وأنتج عبقريته «شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان» حيث أصبحت الجغرافيا ـ عنده ـ هي مصر ومصر هي الجغرافيا .فنسمعه يكتب « هكذا مصر تأخذ وتعطي.تؤصل وتوصل.الجغرافية قديمة جداً.من أقدم العلوم.ولكنها كلما تغيرت كلما كانت نفس الشئ.تماماً كمصر » أرأيت كم هي موسيقية جغرافية حمدان.فعندما يتوحد في قلب العالِم تخصصه العلمي وبلده ويصبحان «إقليماً» واحداً فإنه يعزف أكثر مما يكتب.ولا يسعنا هنا إلا أن نتعجب معه وهو يقول «شئ غريب فعلاً وحقا.موقع الجغرافيا بين العلوم يكاد يشبه موقع مصر بين البلاد».

وكان حمدان يرى أن الجغرافي' هو أقدر المتخصصين الذين يلجأ إليهم المثقف العام والمواطن العادي لمعرفة جوهر وطنه لأنه ـ أي الجغرافي ـ «متخصص في عدم التخصص» وذلك لكونه « يضرب بحرية في كل العلوم.يربط الأرض بالناس.والحاضر بالماضي.والمادي باللامادي.والعضوي بغير العضوي.ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الأرض » .

ولقد كانت الجغرافيا عند حمدان هي «الجذر الجبري للتاريخ ».فقد كتب: أن الجغرافيا تاريخ توقف بمثل ما إن التاريخ جغرافية متحركة « ومن هنا جاء إلمامه الواسع العميق بتاريخ مصر بكافة مراحله.بل ولا نزيد إذا قلنا بتاريخ البشرية

كلها.ويتضح ذلك في مقدمة كتابه القيم «استراتيجية الاستعمار والتحرير » عندما أكد أهمية البعد التاريخي كمدخل لأية دراسة علمية جادة وعميقة للواقع السياسي والإستراتيجي المعاصر واعتبر التاريخ هو معمل الجغرافي ومخزن الاستراتيجي.«فالتاريخ إذا كرر نفسه فإن هذا التكرار هو الجغرافيا» .

وترجع أهمية التاريخ بالنسبة للجغرافيا إلي أنه بالدور التاريخيّ وحده يمكن التعرف علي الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلي التعبير الحر عن شخصية الإقليم « فالبيئة قد تكون في بعض الأحيان خرساء.لكنها تنطق من خلال الإنسان.وربما تكون الجغرافيا صماء.لكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها.ولقد قيل بحق أن التاريخ ظل الإنسان علي الأرض بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض علي الزمان» .

رحم الله حمدان الذي نظر إلى الدنيا كمسرح جغرافي كبير واعتبر الجغرافيا «سندريللا العلوم».سندريللا تحدق بمثل ما تحلق.وهي عنده شعر العلم الذي نثره العلوم الأولية.والعلوم الأولية نثر شعره الجغرافيا.هندسة المكان وعلمه.إذا لم تكن فوق الجميع فإنها حول الجميع.وإذا لم تكن حول الجميع فإنها تحت الجميع .

د.أحمد عبد العال

جريدتا:الجمهورية ٨/ ١/ ٢٠٠٠ والتكافل ١/ ٤/ ٢٠٠٠